الحداثة وخطاب التنظير العربي.

د.عمارة بوجمعة
أستاذ محاضر أ
كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة سيدي بلعباس.

لا يمكن رصد قضايا الحداثة الشعرية العربية إبداعا ونقدا إلا من خلال الوقوف على الآراء النقدية التي صاغتها بعض التنظيرات العربية التي حاولت أن تستهدف مفهومات التجديد الشعري وقضاياها الحديثة. وإذا كان من الصعوبة استقراء هذا المجال لا تساع اتجاهاته ومفهومات في حقل النقد العربي، فإن الثابت أن حركة التنظير للشعر العربي الحديث، لم تشكل نظرية متماسكة للحداثة الشعرية، وإنما حددت بعض المعالم لحركة الشعر الحديث والمتمثلة في الموضوعات الشعرية والمواقف والتشكيلات الفنية والإيقاعية، زيادة على استبطان التجارب والدلالات الاجتماعية والإنسانية.

والحال أن هذه القضايا التي أثارها التنظير حول حركة التجديد الشعري ظلت خاضعة في الغالب إلى النزعة السجالية التي أعاقت مسار النقد الحديث، وطمست معالم التنظير السليم في إنتاج معرفة عميقة بحداثة النص الشعري واشتراطات واقعه التاريخي والحضاري.

1-مجلة شعر وقضايا التجديد الشعري:

أسهمت مجلة «شعر» التي تأسست في بيروت سنة 1957 إسهاما كبيرا في تشكيل أفق شعرية الحداثة العربية، فقد نجحت هذه الحركة إلى حد كبير في تقديم رؤية ناضجة لكثير من المفاهيم الحداثية. وكان الشاعر يوسف الخال هو أول من وضع المنطلقات النظرية التي عملت على تأسيس مفهوم جديد للشعر، ينطلق من الحركة الشعرية التي تعرف عليها الحال في أمريكا وفي المناخ الغربي العام الذي كان يعيش في جو الحركات الفنية التجديدية تؤسس للحداثة الشعرية. وقد كان المبرر لعملية التجديد الشعري يستجيب للطابع المتجدد للشعر، فالشعر يتغير بتغير الحقب الزمنية، ويتطور بتطور المفاهيم الاجتماعية والفلسفية، كما يظل بهذه القيمة الجوهرية تجاوزا إبداعا مستمرا لنمط التفكير والتعبير السائد.

كان تأسيس مجلة «شعر» مناسبة لالتقاء أدونيس مع توجيهات يوسف الخال المؤسسة للمحاولات التحديثية في الشعر العربي، ليصبح أدونيس بعد ذلك، هو المنظر الأكثر تأثيرا في حركة المجلة، سواء من خلال طروحاته أو دراساته النقدية [1]. وتمثلت مهمة أدونيس ويوسف الخال ومن انظم إليهما في تجمع المجلة في نقد الشعر العربي المعاصر وإعادة تقيمه وفقا للمفاهيم الحداثية التي عرفتها حداثة الشعر الغربي، فكان لها أن اعتمدت على الدعوة إلى

[1] - ينظر أدونيس، ها أنت أيها الوقت،دار العودة، بيروت،2005، ص 93.

تحرير الشعر من القوالب الفنية الموروثة، وهذا بالإفادة من التجارب الشعرية العالمية.

ويمكن الوقوف على أهداف وطريقة مجلة شعر من خلال ما عده يوسف الخال إنجازا للمجلة وهي[2]:

1- أوجدت للمرة الأولى في الحركة الشعرية العربية الحديثة مناخا ووسطا للتفاعل بين الشعراء والتغيير عن تجاربهم بحرية مطلقة.

2- أقامت حسرا حيا بين الحركة الشعرية العربية والحركات الشعرية في الغرب.

3- أعطت المجلة للمرة الأولى في العالم الدليل الواقعي على قضية الشعر يمكن أن تكون قضية مشتركة، ترتفع فوق الآراء السياسية والاتجاهات الفكرية من أي نوع، كما عملت على إنضاج الحركة الشعرية العربية.

«ومن هنا نرى أن «شعر» سارت سيرا منهجيا مدروسا منطلقا من مفهوم الخال نفسه للشعر، وفتحت أوراقها لتكون مسرحا تجريبيا لهذا المفهوم، متبنية تيارا ليبراليا، يعيد النظر في مفاهيم الشعر والتجربة الشعرية والأشكال والمضامين التقليدية، مما كان سائدا في ذلك الوقت، ويدعو إلى الانفتاح على الشعر العالمي والتواصل

---

[2] - ينظر المرجع السابق ص93.

الإنساني» [3]. غير أن المنهج الذي سطره الخال للمجلة سرعان ما تعرض لهزات عنيفة ساعدت على حدوثها الاختلافات الإيديولوجية والمرجعيات الفكرية والثقافية، وهي عوامل أكدت الاختلاف في التصور بين الخال وأودونيس، وقد أشار أدونيس إلى ذلك بقوله:»لم تكن آراؤنا يوسف الخال وأنا، متطابقة في قضايا الثقافة بعامة، ولا في قضايا الشعر بخاصة، كنا نختلف في أشياء كثيرة، وهذا أمر طبيعي، ولم نختلف في التنظير وحسب وإنما كنا نختلف كذلك في التقويم...» [4]. والحق أن الاختلاف بين أدونيس ويوسف الخال، لم يقف عند هذا الحد، فقد كانت القضايا الخلافية حاسمة لانفصال أدونيس عن حركة مجلة شعر

ومن بين القضايا النظرية الشائكة التي كانت موطن خلاف كبير بين أدونيس ويوسف الخال، ما تعلق بمفهوم الهوية، وهي القضية التي أشار إليها أدونيس في رسالة بعث بها إلى الخال «الحياة العربية منذ سقوط بغداد بين يدي هولاكو تحولت هي نفسها إلى سقوط مستمر... أنت تتخذ من هذه الظاهرة دليلا على سقوط العرب، وتعلن-انفصالك- واقفا على ضفة ثانية أما أنا فاتخذت منه على العكس دليلا على نهوض العرب، وأعلى ارتباطي الكياني بهم وجودا ومصيرا، والفرق بيننا هكذا أصبح الآن كما

[3] - ساندي سالم أبو يوسف، قضايا النقد والحداثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ط1-2005.ص 26.

[4] - أدونيس، ها أنت أيها الوقت، ص 109.

يبدو، هو أنك لا ترى من العرب غير الذين سقطوا... وأني أرى العرب في نفسي...»[5]. إن حرص أدونيس في الانتماء إلى الثقافة العربية ينطلق من إدراك لديه بأن الرهان على حداثة إبداعية عربية لا يمكن تحقيقه إلا بمعايير مستمدة من الثقافة العربية ذاتها، أي بترجمة زمنها الخاص إلى أفكار جديدة.

وإلى جانب هذا الخلاف في الموقف من الماضي والهوية والتراث، احتدم هذا الخلاف أيضا في مسألة اللغة. كان الخال يعتقد أن اللغة العربية في شكلها الفصيح السائد، لم تعد قادرة على مواكبة الحركة المتنوعة الضخمة في الحياة والثقافة، والإفصاح عنها، وبما أن الإنسان إبداعا وهوية، هو في المقام الأول لغة، فقد كان يرد الضحالة في الإبداع العربي إلى وضعية اللغة العربية... وكان أدونيس يرى أن اللغة أيا كانت لبست هي ما يعيق الإبداع[6]. ذلك أن إبداعية الشعر قائمة في الإمكانات التعبير المتاحة في التعبير الشعري، وهي إمكانات يستطيع بها الشعر تكوين معرفة جمالية تنفتح على المغامرة اللانهائية للكتابة.

والملاحظ أن اللغة ظلت هي الهاجس الأساس في تنظير يوسف الخال النقدي، «لتبرز هذه القضية هما حداثيا، لم يستطع الخال تجاوزه، بل أوقعه في شرك فشل تجربة مجلة شعر التي اصطدمت بحسب قوله –بجدار اللغة– وقاده نحو الصعوبة والدخول

---

[5] - أدونيس: زمن الشعر، دار الساقي. بيروت ط6-2005. ص 241.

[6] - ينظر: ساندي سالم أبو يوسف، قضايا النقد والحداثة، ص 38.

في متاهات الدعوات المشبوهة التي ترمي إلى تبني العامية والتنظير لها وتوظيفها في الشعر تماشيا مع الدعوات إلى العامية التي بدأت بكتاب المستشرق «ولهام سبيتا» 1880 «قواعد اللغة العربية في مصر» الذي دعا فيه إلى اتخاذ العامية لغة للكتابة، واقترح فيه ضبط العامية حتى تصير صالحة للاستعمال الكتابي وكان رفاعة الطهطاوي من أوائل المصريين الذين قالوا بضبط العامية ودعوا إلى التصنيف بها»[7]. وبهذا كان تطرق يوسف الخال في تبني الدعوات الحداثية العربية وإسقاطها على التجربة العربية عاملا حاسما في إجهاض محاولة تجربة مجلة شعر في النهوض بالحداثة الشعرية العربية.

وعلى خلاف تصور يوسف الخال في توظيف اللغة العامية، يرى أدونيس أن هذه الدعوة، قد تجد ما يفسرها في اللغة الإنجليزية وتاريخية الإبداع فيها، إلا أنها لا يمكن أن تطبق اعتباطا على اللغة العربية، فالمسألة بالنسبة إلى هذه اللغة أكثر تعقيدا، وليس ذلك حصرا بسبب الدين عموما والقرآن الكريم خصوصا، وإنما بسبب الشعرية أيضا والإبداعية ذاتها، فمشكلات اللغة عندنا ليست في اللغة بما هي لغة، بقدر ما هي في بنية العقل والنفس، في الرؤيا الإبداعية بمعناها الشامل[8]، ومن ثم الغريزة التي تفجرها اللغة أمام

---

[7] - زكريا نفوسة، تاريخ الدعوة إلى العامية، تاريخ إلى العامية وآثارها في مصر، دار نشر الثقافة الإسكندرية، ط1، 1964، ص 88.

[8] - ينظر: أدونيس، سياسة الشعر، دار الآداب. بيروت. ط1-1977. ص 130.

الشاعر، فما يميز شاعر عن شاعر آخر، هو قدرته في تحرير الطاقات الكامنة في اللغة وشحنها بدلالات جديدة. أي في القدرة على بناء لغة شعرية مغايرة، تتفاعل ضمن إطارها المكونات الأساسية: المعجمية، التركيبية والدلالية بطريقة مختلفة عن طرق الاشتغالات الشعرية السائدة.

2-مجلة شعر وحركة التجريب:

رأت مجلة «شعر» أن تحديد الشعر بقاعدة الوزن هو معيار يتنافى مع الطبيعة الشعرية ذاتها. فالشعر يرفض أن يسكن في إطار إيقاعي ثابت. وبهذا المعنى كانت القصيدة الحديثة فوق ثبات الشكل «وهي جاهزة أبدا للهرب من كل أنواع الانحباس في أوزان وإيقاعات محددة، بحيث يتاح لها أن توحي بالإحساس بجوهر متموج لا يدرك إدراكا كليا ونهائيا»[9]. وبهذا المنظور عمدت حركة مجلة «شعر» إلى الترويج لقصيدة النثر. يقول أدونيس في هذا السياق:»ولعلنا نعرف جميعا أن قصيدة النثر، وهو مصطلح أطلعناه في مجلة «شعر» إنما هي كنوع أدبي-شعري، نتيجة لتطور تعبيري في الكتابة الأمريكية-الأوروبية»[10]، غير أن أدونيس يتعرف أن تأسيس قصيدة النثر في الشعرية العربية، لم يكن لينجح لولا ما تتمتع به شعرية اللغة العربية من إمكانيات تسمح لها باستقبال هذا التجريب الجديد. وفي هذا السياق يشير بأن مجلة شعر، قد تبنت هذا الشكل

---

[9] -أدونيس: مقدمة للشعر العربي، دار العودة بيروت، ط4-1983. ص 109.

[10] - أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، دار العودة بيروت، ط1-1980، ص 316.

الشعري الجديد انطلاقا من ثلاثة مبادئ مستقلة عن مفهوماتها الفرنسية وهي[11]:

1- شعرية اللغة العربية لا يتنفذها الأوزان على الرغم من كمالها وغناها فينا وأن هذه اللغة تزخر بإمكانيات وطرائق وتراكيب لانهائية.

2- ابتكار طرق وأشكال أخرى للتعبير الشعري تواكب الطرق والأشكال القائمة على الوزن، بما يغني اللغة الشعرية العربية وينوعها ويعددها. وفي هذا إثراء للمخيلة وللذائقة أيضا، فقصيدة النثر كانت تجريبا جريئا في حقل اللغة.

3- الرغبة العميقة في جعل اللغة العربية مفتوحة على جميع التجارب الشعرية في العالم، وفي وضعها إبداعيا على خريطة الإبداع الكوني.

ولعل الملاحظ في تجربة قصيدة النثر أنها كانت جزءا من مشروع التجريب والانفتاح على الأشكال في الحركة الشعرية التي أسستها مجلة «شعر»، وكان هذا المشروع يستند إلى الأسس الآتية[12]:

---

11 - ينظر: يسرى الأمير، حوار مع أدونيس، مجلة الآداب، بيروت، عدد 9-10، تشرين الأول 2001، ص 47.

12 - ينظر سادي سالم أبو سيف: قضايا النقد والحداثة، ص 116-117.

1- اختلاف تجربة الإنسان المعاصر عن تجربة الإنسان القديم ومعاناته، مما أصبح يتطلب نوعا جديدا من الشعر القادر على التعبير عن خصوصية التجربة الإنسانية المعاصرة.

2- عدم قدرة الشكل الشعري القديم على حمل التجربة الحديثة، وعليه فإن «القصيدة الكلاسيكية لم تعد قادرة على التعبير عن نظرية الكونية من خلال الجزئيات ولن تتمكن في ضوء هذا العائق من استيعاب الحضارات الإنسانية.

3- ضرورة الاستفادة من التجارب الشعرية الغربية الجديدة في تعميق الرؤية، لأن التجديد الشعري «هو وليد نظرة شاملة وجديدة وجذرية للحياة والإنسان. وفي مثل هذه النظرة تنفتح أمام الشاعر سبل فنية مختلفة تمكنه من أن يرى الأشياء والعالم رؤية مختلفة ويعبر عنها بأشكال مختلفة بحيث يأتي نتاجه جديدا حقا»[13]. وهكذا تتحدد قيمة الشعر بوصفه مضمونا جديدا يتحدد بطبيعة التجربة التي تخلق شكلها المناسب.

وإذا كانت قضايا التنظير للأشكال الفنية واستيعابها في الثقافة العربية تختلف من حيث العمق والسطحية عند أعضاء مجلة شعر، فإن الرؤية النقدية التي صاغتها هذه المجلة حققت على الرغم من افتقارها للطابع المنهجي المحدد مظهرا حداثيا مهما في الحياة الأدبية العربية، وتمثلت أبرز معالم هذا المظهر في توجيه الشعر وتعميق علاقته بالأسئلة التي تتصل بمصير الإنسان والحياة والكون، من خلال التفاعل مع تراثه، ومع ما توفره الروافد العالمية من قيم حضارية وثقافية وروحية.

---

13 - أدونيس: ها أنت أيها الوقت، ص 108.